

في نور محمد فاطمة الزهراء

فلماذا الجفوة؟ ما الذي غيّر هذا التغيير؟ كبرياؤها تأبى عليها أن تستنبئه سرّه. ثم علمت ما خفي عنها كلّ تلك الأيام الطوال، زلّ به أمامها لسان إحدى المهاجرات. وعندئذ هالها ما سمعت... فأبيّ هول! صعقها الخبر، أحسّت بقلبها في جوفها ينفجر، وتدوّق غضبها مع دموعها يلوم أمّها على الكتمان: يغفر الله لك يا أمّاه! تحدّث الناس بما تحدّثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟! فلم تمهلها الأمّ أن تسترسل، بل عاجلتها مهوّنة: أي بُنيّة! خفّفي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبّها لها ضرائر إلاّ كثّر الناس عليها. أمّاً محمد، فقد كان فيهمّ واصب، وألم مقيم من هذا الذي هتر [1026] به الأفاكون، ثم هتنت [1027] ألسن المنافقين أينما مضت به قدم; حقداً عليه ونكايةً فيه كانت الحيرة تمزّقه، وكانت الغيرة تنهشه بأنياب أراقم [1028]. ولو أن فاطمة عجمت [1029] المحن التي أصابته، لما وقعت بينها على محنة هي أضع من هذه فظاعة، أو أبشع بشاعة... ولو أنّها راجعت ذكرياتها معه، لما علمت قلبها قد تفتّط مرّةً; رحمةً وحسرةً، كما تفتّط هذه المرّة. أمّاً الرحمة فلعائشة الطعينة في شرفها - افتراءً - وليست تدري بأيّ سلاح تردّ الفرية، ولا كيف يرؤوها من الطعنة... وأمّاً الحسرة فعلى الأب الذي يفتّسه الشكّ الضاري، ثم لا يكاد يجد منه لنفسه خلاصاً ولا مثابةً. لكأنّي بحسّ الزهراء المرهف هو الذي يتكلّم الآن ثم يحكم، أو كأنّي بصفائها